

تقديم

كان من المنطق أن يظهر هذا الكتاب قبل - أو مع - كتابنا "أبي حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام" (سنة ١٩٤٥م) أو كتاب "مالك بن أنس". فلقد تتلمذ أبو حنيفة ومالك للإمام الصادق، وتأثرا كثيرا به، سواء في الفقه أو في الطريقة. ومالك شيخ الشافعي. والشافعي يدلي إلى أبناء النبي ﷺ بأسباب من العلم والدم. وقد تتلمذ له أحمد بن حنبل سنوات عشرة. فهؤلاء أئمة أهل السنة الأربعة، تلاميذ مباشرين أو غير مباشرين للإمام الصادق.

غير أن تعاقب الأئمة الأربعة لأهل السنة، وتقارب مذاهبهم في تعبيرها عن فقه "أهل السنة، دفعا إلى وجه آخر. فظهرت كتبنا عنهم بين سنتي ١٩٤٥، ١٩٧٠ للميلاد.

وإلى ذلك فقد تأكد في كتابنا "توحيد الأمة العربية" (سنة ١٩٦٥م) أن "وحدة القاعدة القانونية" هي الطريقة المثلى لربط المسلمين، في شتى أقطارهم، بتشريع إسلامي شامل. تضوّل دونه التشريعات المعاصرة في الغرب أو في الشرق. والفقه "الشيوعي" واحد من النهجين اللذين تسقى منهما حضارة أهل الإسلام. وإليه لجأ الشارع المصري في هذا القرن لإجراء إصلاحات ذات بال في نظم الأسرة المصرية.

والإمام جعفر الصادق يقف شامخا في قمة فقه أهل بيت النبي عليه الصلاة والسلام. هو في الفقه إمام. وحياته للمسلمين إمام. والمسلمون اليوم يلتمسون في كنوزهم الذاتية مصادر أصيلة للنهضة، مسلمة غير مخطئة ولا مستوردة.

هو الإمام الوحيد من "أهل البيت" الذي أتاحت له إمامة دامت أكثر من ثلث قرن، تمحض فيها مجلسه للعلم، دون أن يمد عينيه إلى السلطة في أيدي الملوك. وبهذا التخصص سلم الأمة مفاتيح العلم النبوية.

ومنه يبدأ التأصيل الواضح لمنهج علمي عام للفكر الإسلامي. نقلته أمم الغرب فبلغت به مبالغها الحالية. وعمل به بين يديه، ثم أعلنه، تلميذه جابر بن حيان أول كيميائي كما تباع له "أوروبية الحديثة"، وهو "منهج التجربة والاستخلاص"، أي الاعتبار بالواقع وتحكيم العقل، مع النزاهة العلمية.

فالإمام الصادق هو فاتح العلم الفكري الجديد، بالمنهج العقلاني والتجريبي، كأصحاب الكشوف الذين فتحوا أرض الله لعباده فدخلوها آمنين.

والإمام الصادق هو الإمام الوحيد في التاريخ الإسلامي، والعالم الوحيد في التاريخ العالمي، الذي قامت على أسس مبادئه "الدينية والفقهية والاجتماعية والاقتصادية" دول عظمى.

ومصر تذكر منها أكبر دولة عرفها التاريخ فيها من عهد الفراعنة - الدولة الفاطمية - التي امتد سلطانها من المحيط الأطلسي إلى برزخ السويس. ولولا هزيمة جيوشها أمام الأراك لخفتت أعلامها على جبال الهملايا في وسط آسيا.

والعالم كله مدين لها بمدينة "القاهرة".

والمسلمون يدينون بها بالجامع الأزهر، الذي حفظ القرآن والسنة واللغة العربية، وعلومها كافة، ويدينون لتعاليم الإمام بقيام دولة كبيرة في إيران. ومجتمع عظيم بالعراق. ومعاهد علمية يتصدرها النجف الأشرف، وشعوب قوية في الهند وباكستان واليمن وأفغانستان ووسط آسيا ولبنان وسورية وكثير سواها.

وهو الإمام الذي علم بالمواقف التي وقفها، قدر ما علم بالمبادئ التي أرساها. فالمواقف أعمال. وهي أعلى صوتا من الأقوال. ولقد يعدل الموقف الواحد جهاد عمر كامل، أو مهمة حياة رجل.

وهو، بمكانه من "أهل البيت". وحقه في الخلافة، وإمامته للفقهاء بلا استثناء، كان غرضاً يطلبه أعظم خلفاء بني العباس ليضيفه إلى قوائم القتلى من صناديد القواد، أو الشهداء من "أهل البيت".

وكان درسا من السماء أن يسيطر الإمام علي الميزان إذ يلتقيان، فيضعف الطالب عن المطلوب، ويرتفع الإمام الصادق بالخليفة القاتل إلى مستوى الحاكم العادل.

* * *

والمستقبلون الذين يتكلمون اليوم عن الأخذ بأسباب النهضة العلمية، كمثل السياسيين الذين لا يرون النهضة العلمية، كمثل السياسيين الذين لا يرون النهضة بالغة شأوها إلا أن تكون شاملة لأمر الدين والدنيا - هؤلاء وأولاء، بحاجة إلى أن يظهروا على حياة الإمام الصادق، ليروا مقدار ما تفلح الدعوة الصادقة بالمبادئ الصحيحة، والخطط المنجحة، في إقامة دول، ومجتمعات، قوامها الدين والعلم والعدل والاقتصاد العصري.

وكمثلهم دعاة الإصلاح الذين يمثلهم الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر في النصف الأول من هذا القرن عندما قال: "إن الأمم ليست بكثرة أفرادها وعديدها ولكن بروحها وإيمانها وخلقها. ولعمري إن سبيل ذلك هو العلم". وقال "إن كل إصلاح لا يقوم على أساس تقوية الروح الديني في الأمة لا بقاء له. ولا خير فيه. وإذا قلت الروح الديني فإنما أريد الأخذ العملي بالشرعية عن إيمان وثقة. لا أن نكتفي بما ينص عليه الدستور من أن دين الدولة هو الإسلام. ثم نكون في أكثر أحوالنا وتشريعاتنا وأخلاقنا على خلاف ما يأمر به الإسلام وينهى عنه الإسلام".

والله نحمد: لقد غيرت مصر في سنة ١٩٧١ دستورها الذي أشار الشيخ إليه. ونصت على أن "الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع" وهي دعوة صادقة لتقوم القوانين المطبقة جميعا على أساس الشريعة.

* * *

وبعد: فالكتاب الحالي يبلغ غرضه إذا كان صوتا يدعو إلى الوحدة. والمسلمون تجمعهم أصول فكرية واحدة، وإن اختلفت الفروع أو تعددت الآراء. وفي تعدد الآراء ثراء. ولما عرض تلميذ لأحمد بن حنبل تسمية كتاب له "كتاب الاختلاف" قال له "سمه كتاب السعة".

ألا: وإنه لا صلاح للمسلمين والعرب اليوم في مواجهة التحدي العالمي إلا بالوحدة.

والعالم الغربي الذي تهز الأفكار المادية والإلحادية عقائده، ويزعزع الرعب النووي اطمئنانه، بحاجة إلى مبادئ الإسلام، وعرض شريعته علميا، كهيئة ما عرضها الإمام الصادق على الملاحدة في عصره فكانوا يسلمون. وكمثل ما علم تلاميذه ومعاصريه قواعد العلم والفقهاء والاقتصاد التي تكفل للمسلمين النماء الفكري والاجتماعي والاقتصادي.

والعامل الغربي، الذي يحسب للعالم الإسلامي حساب الطاقة التي خزنتها السماء في الأرض الإسلامية، التي جعلها الله مقرا لبيته العتيق، وحساب المعادن التي تعكس الأعمار الصناعية لمعانها وإشراقها كلما صورت أرض العرب، هذا العالم الغربي الذي جمعت الحروب الصليبية في مقابلة العالم الإسلامي، والذي خططت حدوده الحالية حروب ومعااهدات دينية، وازدهرت قاراته الجديدة بعد هجرات تجري في جذورها النوازع الدينية، هذا العالم الغربي جدير بأن يواجهه المسلمون كالبنيان المرصوص، لا كهيئة الحجارة المتناثرة، قد بعثرتها في مهاب الرياح الأربعة أمم غلبت عليها بالقوة، من الخارج، وبالتخلف الاجتماعي والعسكري والاختلاف الديني في الداخل.

والمسلمون اليوم لا يتنازعون سلطة كما كان الأقدمون منهم يتنازعون من أجل السلطة.
وإنما يتنازع غيرهم السلطة عليهم.

وهم اليوم لا يتقاسمون القوة وإنما يتقاسمون الضعف المادي، في حين يختزنون القيم
العليا للتقدم، والقوى التي تحصى وتعد. فحيثما ابتغوا الوسيلة وجدوا نصر الله.

ويوم توجد فينا إرادة الانتصار سننتصر.

والله متم نوره.

* * *

حياة الإمام تنقسم في ترجمتها قسمين: الأول عن الرجل، والثاني عن علمه. وعلى ذلك
وردت الصورة التي صورنا فيها هذه الحياة في قسمين. كل منهما في ثلاثة أبواب.

القسم الأول: يدور حول ظهور الإسلام وتألق "علي" وأولاده من "قائمة الزهراء" في
الصدارة من الأشخاص والأحداث، والبيئة التي نتج فيها الإمام الصادق. فتعاونت على إعداد
ظروف الوفاء، أو العداء، لأهل البيت، لتهيئ منه إماما خصيسته تعليم العلم الذي تلقاه عن
جديه، وطريقته الأسوة الحسنة في أعمال حياته، وتحمل التبعات حيث تزوغ الأبصار.

والقسم الثاني: من الكتاب يعرض تصور المؤلف للعلم الذي علمه الإمام، والمدرسة التي
أنتجته، والمنهج العلمي، العالمي، الذي أخذ به العلماء الدينيون والفقهيون، والرياضيون والفلكيون
والكيميائيون وعلماء الطبيعة الإسلاميون، ونقله عنهم رياضيو العصور الوسيطة في أوروبا،
ليصير "منهج التجربة والاستخلاص" الذي يعمل به الفكر المعاصر، بعد إذ ترجم من العربية في
جنوب فرنسا وأسبانيا وصقلية وسواها من جامعات أوروبا، وسبق إلى التنويه به "روجير بيكون"
ثم نسب إلى "فرنسيس بيكون" بعد ثلاثة قرون وكذلك المنهج السياسي والاجتماعي والاقتصادي
الذي أقام الدول العظمى والمجتمعات الإسلامية التي يباهي بها المسلمون في العصر الوسيط
وفي العصور الحديثة.

وفي هذا القسم باب أخير تبدو فيه عدالة التاريخ مصححة لانحراف الأعداء وافتياتهم على أبناء علي. كما يظهر فيه نصر الله للمسلمين إذ يتحدون.

"والله نسأل أن يقينا الزلل"